

موقف الشيخ ناصر مكارم الشيرازي من التوسل

(دراسة موضوعية)

أ.م.د. عامر ضاحي سلمان

كلية التربية الأساسية/ الجامعة المستنصرية

amer.edbs@uomustansiriyah.edu.iq

المخلص

يتناول هذا البحث موقف الشيخ ناصر مكارم الشيرازي من مسألة التوسل، بوصفها إحدى القضايا العقدية المثيرة للجدل في التاريخ الإسلامي، إذ عرّف الباحث التوسل من الناحية اللغوية والاصطلاحية، مبيناً أنه اتخاذ وسيلة مشروعة للتقرب إلى الله تعالى، سواء بالأعمال الصالحة أو بمقام الأنبياء والأولياء. ثم عرض الباحث موقف الشيخ ناصر مكارم الشيرازي الذي يرى أن التوسل لا يتعارض مع التوحيد، بل هو تأكيد له، ما دام المقصود هو الله تعالى وحده، والمتوسل به ليس إلا سبباً مأذوناً به شرعاً. وقد أشار البحث إلى الانحرافات التي طرأت على فهم التوسل بين من أنكروه مطلقاً وعدّه شركاً، وبين من غلا فيه حتى أخرجوه عن مقاصده الصحيحة. كما استعرض الباحث الأدلة من القرآن الكريم والروايات الإسلامية التي استند إليها الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، والتي أكدت مشروعية التوسل بأنماطه المتعددة. كما بيّن في قضية التوسل التي أثارت جدلاً واسعاً في الوسط الإسلامي بين مؤيد ومعارض، حتى وصل الخلاف فيها إلى التكفير والتبديع. وخلص البحث إلى أن التوسل وسيلة مشروعة من وسائل الدعاء، لا يُشترط دائماً في الدعاء، لكنه جائز إذا ثبت بدليل شرعي، شرط ألا يُعتقد في الوسيلة الاستقلال في النفع أو الضرر، ومن ثم فإن التوسل الصحيح هو عين التوحيد، بينما الإفراط أو التفريط فيه كلاهما انحراف عن جادة الاعتدال. ثم أنهيتُ بخاتمة أجملتُ فيها النتائج التي أسفر عنها البحث. الكلمات المفتاحية: (التوسل، الوسيلة، والمتوسل، والتشفع).

Sheikh Nasser Makarem Shirazi's position on supplication (an objective study)

Professor, Assistant, Dr. Amer Dahi Salman

Mustansiriya University-College of Basic Education

amer.edbs@uomustansiriyah.edu.iq

Abstract

This research examines Sheikh Nasser Makarem Shirazi's position on the issue of tawassul, as one of the most controversial doctrinal issues in Islamic history. The researcher defines tawassul from a linguistic and technical perspective, explaining that it means adopting a legitimate means of drawing closer to God Almighty, whether through good deeds or through the status of prophets and saints.

The researcher then presented the positions of Sheikh Makarem Shirazi, who believes that tawassul does not conflict with monotheism, but rather confirms it, as long as the intended goal is God Almighty alone, and the one being sought is merely a legitimate means of intercession. The research pointed to the deviations that have occurred in the understanding of tawassul, ranging from those who deny it outright and consider it polytheism, to those who have exaggerated its significance to the point of deviating from its correct objectives.

The researcher also reviewed evidence from the Holy Quran and Islamic narrations on which Sheikh Nasser Makarem Shirazi relied, which confirmed the legitimacy of supplication in its various forms.

As we have shown in the issue of supplication, which sparked widespread controversy in Islamic circles between supporters and opponents, to the point that the dispute reached the level of excommunication and heresy.

The research concluded that supplication is a legitimate means of supplication. It is not always required in supplication, but it is permissible if proven by legal evidence, provided that the means is not believed to be independent in terms of benefit or harm.

Therefore, correct supplication is the essence of monotheism, while excess or neglect in it both constitute a deviation from the path of moderation.

I concluded the study with a summary that outlined the most significant findings of the research.

Keywords: (Supplication, means, supplicant, intercession).

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآل بيته الهداة المهديين، وصحبه أجمعين، الذين وصفهم الله تعالى ﴿أَشِدَّاءَ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].
أما بعد:

يُعد موضوع التوسل من القضايا العقدية التي أثارت نقاشاً واسعاً في الفكر الإسلامي، إذ انقسمت المواقف بين من أجازها ورأى فيه وسيلة مشروعة للتقرب إلى الله تعالى، وبين من رفضه وعده من مظاهر الشرك. وقد أدى هذا الخلاف إلى جدل طويل امتد عبر القرون، وتسبب في نزاعات فكرية وعقدية لا تزال آثارها حاضرة حتى اليوم، ومن هنا تتبع مشكلة البحث في محاولة تحديد الموقف الصحيح من التوسل، بعيداً عن الغلو أو التفریط، وإيضاح أبعاده العقدية وفق منهج علمي موضوعي.

وبعناية الله تعالى وتوفيقه، وقع اختياري على موضوع البحث الموسوم: "موقف الشيخ ناصر مكارم الشيرازي^(١) من التوسل - دراسة موضوعية"، لما لهذا الموضوع من أهمية بالغة في الفكر الإسلامي، فقد أولى الشيخ مكارم الشيرازي قضية التوسل اهتماماً خاصاً، فتناولها بالبحث العميق، مبيّناً مفهومه في اللغة والاصطلاح، ومستنداً في مشروعيته إلى أدلة من القرآن الكريم

(١) هو الشيخ "ناصر بن محمد علي بن محمد كريم بن محمد باقر مكارم الشيرازي"، أحد المراجع الشيعية في إيران، وسمي بالشيرازي نسبة إلى مدينة شيراز جنوب إيران موطن أسرته وأجداده، ولد الشيرازي سنة "١٣٤٥هـ - ١٩٢٤م"، في مدينة شيراز في جنوب إيران، من أسرة متديّنة تتحلّى بكارم الأخلاق، وتعرف بالفضيلة؛ ولأن البحث موضع إجمال لم أتعرض لسيرة حياة الشيرازي، وللاطلاع أكثر يمكن الرجوع إلى المصادر الآتية: السيرة المباركة لسماحة آية الله العظمى مكارم الشيرازي، أحمد القدسي، مدرسة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، قم، ط١، ١٤٢٤هـ. وكذلك يمكن الرجوع إلى الدراسات الجامعية منها: "المثل الاخلاقي في تفسير نفحات القرآن، للشيخ ناصر مكارم الشيرازي (دراسة موضوعية)، فاطمة حسين كاظم، رسالة ماجستير في التربية الإسلامية، الجامعة المستنصرية/ كلية التربية الأساسية، ٢٠١٢م؛ "المسائل العقائدية في سورة هود في تفسير الامثل واهميتها التربوية، هناء هاشم عباس، رسالة ماجستير في التربية الإسلامية، الجامعة المستنصرية/ كلية التربية الأساسية، ٢٠١٢م."

والروايات الإسلامية، كما عمل على مناقشة الشبهات المثارة حوله، موضحاً أن التوسل في جوهره لا يخرج عن كونه أسلوباً مشروعاً من أساليب الدعاء، يكون المقصود فيه الله تعالى وحده، في حين يُعد المتوسل به وسيلة للتقرب إليه.

ويرى الشيخ ناصر مكارم الشيرازي أن التوسل تجاوز حدود الخلافات الفقهية الجزئية ليشكل قضية عقدية أثارت جدلاً واسعاً في الفكر الإسلامي، وقد خلص البحث إلى أن التوسل لا يتعارض مع مبدأ التوحيد، إذ تبقى الغاية النهائية هي التوجه إلى الله تعالى.

إشكالية البحث

يمكن حصر الموضوع الرئيسي للبحث (التوسل) وما ينجم عنه من قضايا، في الإجابة عن المشكلات الآتية:

١. ما المفهوم اللغوي والاصطلاحي للتوسل، وما جذور الخلاف العقدي حوله؟
٢. ما هي الأدلة القرآنية والحديثية التي استند إليها الشيخ ناصر مكارم الشيرازي في إثبات مشروعية التوسل؟
٣. كيف عالج الشيخ ناصر مكارم الشيرازي الإشكالات والشبهات المثارة حول التوسل؟
٤. ما هي الانحرافات التي وقعت في فهم التوسل بين طرفي الإفراط والتفريط؟
٥. كيف يمكن لموقف الشيخ ناصر مكارم الشيرازي أن يسهم في توضيح مساحة الخلاف وتقريب وجهات النظر بين المسلمين؟

أهداف البحث

يهدف البحث إلى ما يأتي:

١. بيان مفهوم التوسل وجذور الخلاف حوله.
٢. دراسة موقف الشيخ ناصر مكارم الشيرازي وتحليل أدلته.
٣. الكشف عن الانحرافات في فهم التوسل بين الإفراط والتفريط.
٤. إبراز الرؤية الوسطية التي تعيد للمسألة توازنها وتضييق مساحة الخلاف العقدي.

منهج البحث

اعتمد البحث على المنهج الموضوعي التحليلي، كما يأتي:

١. منهج موضوعي: لعرض القضية بحياد وبعيداً عن التعصب.
٢. منهج تحليلي استدلالي: يقوم على تحليل النصوص، ومقارنتها، وتوظيف الأدلة من الكتاب والسنة، لتوضيح موقف الشيخ ناصر مكارم الشيرازي من التوسل.

أما منهجية الباحث

اتبعت في منهجية البحث ما يأتي:

١. تجاوزت مؤلفات الشيخ ناصر مكارم الشيرازي المائة مؤلف، إلا أن الباحث اعتمد في هذا البحث على ثلاثة من كتبه التي تناولت موضوع التوسل وهي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، والشيعه شبهاة وردود، ونفحات الولاية.
٢. جاء منهجي في هذا البحث مرتكزاً على تقديم رأي الشيخ ناصر مكارم الشيرازي في المسألة محل الدراسة، بوصفه المحور الأساس للبحث، ثم أعقبه بذكر آراء العلماء الآخرين دون التقيد بالترتيب الزمني لوفاتهم، سواء كانوا سابقين له أو لاحقين.
٣. عند نقل أقوال العلماء من مصادره الأصلية حرفياً، اضعبها بين أقواس التنصيص " "، وأخرج بنتيجة في نهاية كل مطلب أو مبحث من هذه الدراسة.
٤. تجنب الباحث الخوض في تفاصيل الخلاف حول مسألة التوسل، حرصاً على تفادي الحدة في الطرح، وتعزيزاً للوحدة والتسامح بين المذاهب الإسلامية.
٥. عزو الآيات القرآنية بذكر اسم السورة ورقم الآية.
٦. تخريج الروايات الإسلامية إلى مصادرها المعتمدة، مع بيان حكم الحديث.
٧. ترجمة الأعلام غير المعروفين، الوارد ذكرهم في البحث، ولم أترجم لصاحب الكتاب الذي استشهد بكلامه من كتابه.
٨. ترتيب المصادر والمراجع هجائياً.

خطة البحث

تضمن البحث مقدمة، ومبحثين، وخاتمة، على النحو الآتي:

المبحث الأول: تعريف التوسل: بيّنا في هذا المبحث مفهوم التوسل من الناحيتين اللغوية والاصطلاحية، فالتوسل لغةً يعني القرب والوسيلة، ويشمل كل ما يقرب الإنسان من الله تعالى من أعمال صالحة وشفاعات، أما اصطلاحاً، فيُعرف التوسل بأنه وسيلة للتقرب إلى الله تعالى لتحقيق الدعاء واستجابة المطالب، مستنداً بذلك إلى نصوص القرآن الكريم والروايات الإسلامية، كما يوضح المبحث ما شهدته قضية التوسل من جدل واسع منذ القرن السابع الهجري، إذ خالف ابن تيمية الرأي السائد في عصره، مما أدى إلى انقسامات بين مؤيدين ومعارضين، ويتضح من ذلك أن التوسل يُعد مشروعاً إذا كان قائماً على الإيمان بالله تعالى، دون الاعتقاد باستقلال الوسيلة في التأثير.

المبحث الثاني: المبحث الثاني: أدلة التوسل في القرآن الكريم والروايات الإسلامية: أوضحنا فيه أدلة التوسل في القرآن الكريم والروايات الإسلامية، موضحاً مشروعيته، إذ أبرز القرآن الكريم التوسل بأشكال متعددة: ابتغاء الوسيلة إلى الله تعالى، والاستغفار عبر النبي ﷺ، وطلب المغفرة عبر أنبياء مثل يوسف (عليه السلام) وأخوته، مؤكداً بذلك أن التوسل لا ينافي التوحيد، بل هو وسيلة للتقرب إلى الله تعالى، كما ذكرت الروايات الإسلامية في مشروعية التوسل عملياً، منها توسل آدم (عليه السلام) بالنبي ﷺ قبل خلقه، ولجوء أبو طالب للنبي ﷺ في صغره لنزول الغيث، وتوسل الرجل الضرير بدعاء النبي ﷺ، واستشفاع الصحابة والتابعين بعد وفاته، مثل فتح كوة عند قبره واستسقاء عمر (رضي الله عنه) بالعباس.

ثم أنهيتُ بحثي بخاتمة أجملتُ فيها أبرز النتائج التي أسفر عنها البحث.

تمهيد

يُعد موضوع التوسل من القضايا التي حظيت باهتمام واسع في الوسط الإسلامي، إذ تناولها العلماء والباحثون بالبحث والنقاش، واختلفت فيها الآراء حتى وصل الخلاف في بعض الأحيان إلى حد التكفير والتبديع، ومع أن التوسل في جوهره لا يستوجب كل هذا الجدل ولا يستدعي أن

يكون سبباً للفرقة والتنافر بين المسلمين، إلا أنه أصبح من أكثر المسائل إثارة للنزاع الفكري والعقدي.

وتبرز أهمية البحث في التوسل من كونه يمس جانباً عقدياً وعملياً يرتبط بعلاقة المسلم بربه، كما أنه من أبرز القضايا التي أثارت تبايناً في المواقف بين من يجيز التوسل بأولياء الله والصالحين، وبين من يرفضه ويعدّه من مظاهر الشرك، ومن هنا تبرز الحاجة إلى دراسة علمية موضوعية توضح المفهوم الصحيح للتوسل، وتستعرض أدلته من الكتاب والسنة، بما يسهم في إزالة اللبس وتضييق مساحة الخلاف بين المسلمين.

لقد أولى الشيخ ناصر مكارم الشيرازي عنايةً خاصة بموضوع التوسل، إذ تناول هذه المسألة بالبحث والتفصيل، فعرف بمفهومها وبيّن حقيقتها، مستنداً في ذلك إلى نصوص القرآن الكريم والروايات الإسلامية، فضلاً عن أقوال كبار العلماء، كما عمل على توضيح ما أُثير حولها من إشكالات وشبهات (الشيرازي، ١٤٢٨هـ، ١٤٢٣هـ: ١٨١، ٣/٦٩٥).

وبعد هذا التمهيد، سنشرع في تفصيل القول ضمن المباحث الآتية:

المبحث الأول: تعريف التوسل.

المطلب الأول: التوسل لغة:

قال الأزهرى: الوسيلة هي الوصلة والقربى، وجمعها الوسائل، وقد ورد في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، ويُقال: توسل فلان إلى فلان بوسيلة، أي اتخذ سبباً يقوده إليه، وتقرب منه بحق قرابةٍ أو رابطةٍ تستميل قلبه (الأزهرى، (ب.ت): مادة (وسل)، ٤٨/١٣).

وقال الجوهرى: "الوسيلة: ما يتقرب به إلى الغير. والجمع: الوصيل والوسائل والتوسل واحد وسئل فلان إلى ربه وسيلة وتوسل إليه بوسيلة أي تقرب إليه بعمل" (الجوهرى، ١٩٩٠م: ١٨٤١/٥).

وقال الراغب: "الوسيلة: التوصل إلى الشيء برغبة، وهي أخص من الوسيلة"^(٢) بتضمنها لمعنى الرغبة، قال تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] (الراغب، ١٤٠٤هـ: مادة (وسل)، ٥٢٣-٥٢٤).

وقال ابن منظور: الوسيلة: هي ما يُتقرب به إلى الغير، وتُطلق على المنزلة والدرجة والقربة، يُقال: وسل فلان إلى الله تعالى وسيلة إذا عمل عملاً يتقرب به إليه، والتوسيل والتوسل واحد، والواصل هو الراغب إلى الله تعالى، وقد ورد في الحديث: "اللهم آتِ محمدًا الوسيلة"^(٣)، والمقصود بها القرب من الله تعالى، وقيل: الشفاعة يوم القيامة، وقيل: منزلة رفيعة في الجنة (ابن منظور، ١٩٨٩م: مادة (وسل)، ١١/٧٢٤-٧٢٥).

وقال الفيومي: "وسلْتُ إلى الله بالعمل (أسل) من باب وعد، رغبتُ وتقربتُ، ومنه اشتقاق (الوسيلة)، وهي ما يتقرب به إلى الشيء، والجمع (الوسائل) و(الوسيل)، قيل: جمع (وسيلة)، وقيل: لغة فيها. و(توسل) إلى ربه بوسيلة: تقرب إليه بعمل" (الفيومي، ب.ت): مادة (وسلت)، ٦٦٠/٢).

ومما تقدّم يتبيّن: أن التوسل في اللغة يأتي بعدة معانٍ، أهمها: القرب، والمكانة، والسبب الموصل، والعمل الصالح، والشفاعة.

المطلب الثاني: التوسل اصطلاحاً

عرفه السيد محمد المالكي قائلاً: "التوسل من اعظم ابواب الفرج، وهو اقرب طرق الوصول إلى بلوغ المأمول وحصول المطلوب، وخصوصاً اذا كان ذلك بجاه الحبيب المحبوب شافي العلل ومفرج الكروب(ص)، ومن إليه منسوب" (المالكي، ٢٠٠٧م: ٢٠٢).

(٢) الوسيلة: "الأرض الواسعة البعيدة، كأنها وصلت بأخرى". (الزبيدي، ١٩٨٦م: مادة (وصل)، ٨٢/٣١).

(٣) هذا الحديث لم أجدّه بهذا اللفظ في الكتب الحديثية، لكن ورد بألفاظ أخرى، ومنها: ما أخرجه البخاري عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ قال: "من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آتِ محمدًا الوسيلة والفضيلة، وابعته مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة". (البخاري، ١٩٨٧م: كتاب الأذان، باب الدعاء عند النداء، ١/٢٢٢، برقم ٥٨).

وعرفه السبحاني بقوله " أن يقدم العبد إلى ربه شيئاً، ليكون وسيلةً إلى الله تعالى في أن يتقبل دعاءه، ويجيبه إلى ما دعا، وينال مطلوبه"(السبحاني، ١٤٢١هـ: ٥٧٦).

وعرفه الدكتور صائب عبد الحميد بقوله: "أما التوسل إلى الله تعالى في معناه الاصطلاحي فهو: أن يتقرب العبد إلى الله تعالى بشيء يكون وسيلة لاستجابة الدعاء ونيل المطلوب، وهو ما جاء به قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]، فهم بعد استغفارهم يتخذون من استغفار الرسول ﷺ لهم وسيلة لنيل توبة الله تعالى عليهم ورحمته إياهم، وهذا توسل بدعاء الرسول ﷺ في حياته" (عبد الحميد، ١٤٢١هـ: ١١٧)، ويمكن الإشارة إلى عدة مصطلحات تُعد مرادفة للتوسل، منها:

١. الاستشفاع أو التشفع: اللجوء إلى الشفيع عند الله تعالى لطلب استجابة الدعاء ونيل القرب والرضا، وقد ثبت استشفاع النبي ﷺ في حياته وبعد وفاته، مع إجماع على تحقق شفاعته لأُمَّته يوم القيامة، إذ يُعد الشفيع وسيلة للتقرب والدعاء.
٢. الاستغاثة: طلب الإغاثة من الله تعالى، أي التوجه إليه طالبين النجدة والمساعدة.
٣. التوجّه والتجوّه: كل منهما يعني التوجّه إلى الله تعالى بما له من وجاهة ومكانة، طلباً للقرب والقبول. (عبد الحميد، ١٤٢١هـ: ١١٨)

وعرفه الشيخ ناصر مكارم الشيرازي بأنها: "تشدان التقرب، أو طلب الشيء الذي يؤدي إلى التقرب للغير عن ميلٍ ورغبةٍ، وعلى هذا الأساس فإن كلمة (الوسيلة) لها معانٍ كثيرةً واسعة، فهي تشمل كل عملٍ أو شيءٍ يؤدي إلى التقرب إلى الله سبحانه وتعالى، وأهم الوسائل في هذا المجال: الإيمان بالله تعالى وبنبيه (ص)، والجهد في سبيل الله تعالى، والعبادات كالصلاة والزكاة والصوم، والحج إلى بيت الله الحرام، وصلة الرحم، والإنفاق في سبيل الله سرّاً وعلانيةً، وكذلك الأعمال الصالحة"(الشيرازي، ١٤٢٣هـ: ٦٩٥/٣).

وقال أيضاً: "إن المراد من التوسل لا يعني . أبداً . طلب شيءٍ من شخص النبي أو الإمام، بل معناه أن يُبادر الإنسان المؤمن - عن طريق الأعمال الصالحة والسير على نهج النبي والإمام - بطلب الشفاعة منهم إلى الله تعالى، أو أن يقسم بجاههم ودينهم (وهذا يُعتبر نوعاً من

الاحترام لمنزلتهم، وهو نوع من العبادة)، ويطلب من الله تعالى بذلك حاجته، وليس في هذا المعنى أي أثرٍ للشرك" (الشيرازي، ١٤٢٣هـ: ٦٩٦/٣)، فالتوسل لا يعني طلب الحاجة من النبي أو الإمام، بل جعلهما شفيعين إلى الله تعالى، وهذا في جوهره توجه إلى الله تعالى، واحترام لمقام الرسول (ص) لكونه رسول الله، والقول بأنه (شرك) غير صحيح، لأن الشرك هو الاعتقاد بوجود من يشارك الله تعالى في صفاته وأفعاله، وهو ما لا صلة له بالتوسل. (الشيرازي، ١٤٢٣هـ: ٧٠٠/٣)

مما تقدم من تعريف التوسل في اللغة والاصطلاح يتبين لنا: إن كلا التعريفين اللغوي والاصطلاحي يشيران إلى معنى التقرب، أي السعي للوصول إلى الغاية أو المطلب عن طريق شيء يربط بين الإنسان وخالقه، ويشمل ذلك مفهوم الوسيلة أو السبب الموصل، سواء كان عملاً صالحاً، أو منزلة، أو سبباً يؤدي إلى التقرب، كما يرتبط التوسل في كلا المعنيين بالغاية من الطلب، فهي قصد الشيء أو التقرب، سواء أكان دنيوياً أو أخروياً، ما يجعل الأساس اللغوي للإشارة إلى الوسيلة متوافقاً مع المعنى الاصطلاحي.

أما (التوسل والوسيلة) فأنهما أيضاً بمعنى واحد في اللغة والاصطلاح، فالوسيلة: هي ما يُتقرب به إلى الله تعالى، كالأعمال الصالحة من صلاة ودعاء وصدقة، أو منزلة يختص الله تعالى بها بعض عباده، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، فالتوسل: هو نفس الفعل، أي اتخاذ الوسيلة طريقاً للتقرب من الله تعالى، فيقال: توسل العبد إلى ربه بعمل صالح أو بدعاء أو بمحبة أنبيائه وأوليائه، أو بعبارة أخرى يمكن القول: إن الوسيلة: هي السبب أو الطريق، أما التوسل: هو ممارسة هذا السبب أو استخدامه في التقرب من الله تعالى.

المطلب الثالث/ انحرافات الفهم في قضية التوسل

قبل الدخول في بيان انحرافات الفهم في قضية التوسل، لابد من بيان الحقبة التاريخية التي ظهر فيها أصل الخلاف في ذلك، إذ يُعد التوسل من القضايا العقدية المرتبطة بمفهوم العبادة

والتقرب إلى الله تعالى، وقد ظل شائعاً بين المسلمين منذ صدر الإسلام والقرون المفضلة، دون خلاف يُذكر، حتى القرن السابع الهجري حين خالف ابن تيمية هذا المسلك، فأثار جدلاً واسعاً. إذ يرى المخالفون لابن تيمية إن التوسل بذوات الأنبياء والصالحين مشروع في الإسلام، وقد دلت عليه نصوص القرآن والسنة، وأقره سلف الأمة، فمن القرآن: يستشهدون بقوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، معتبرين أن الوسيلة لفظ عام يشمل التوسل بالأشخاص وبالأعمال معاً، بل إن المعنى المتبادر في الشرع يجمع بين الأمرين، وأما في السنة: فيستدلون بتوسل عمر بن الخطاب (ت ٢٣هـ) بالعباس بن عبد المطلب (ت ٣٢هـ) رضي الله عنهما، وبغيرهما من الصحابة، وأما الإجماع: فقد نقله جمع من العلماء في جواز التوسل بذوات الأنبياء في حياتهم حضوراً وغياباً، وبعد وفاتهم، مؤكداً أن هذا هو ما جرى عليه السلف في القرون المفضلة الأولى، ولم يُعرف إنكار لذلك إلا بعد القرن السابع الهجري، حين خالف ابن تيمية هذا المسلك، فعدوه مبتدعاً في إنكاره، إذ ظل عمل الأمة على التوسل والزيارة قائماً طوال أربعة عشر قرناً لم يردده أحد غيره وتلامذته في القرن السابع. (الغصن، ١٤٢٤هـ: ٤٢٨-٤٢٩)

وبناءً على ذلك بين السبكي (ت ٧٥٦هـ) ذلك بقوله: "علم: أنه يجوز التوسل والاستعانة والتشفع بالنبي ﷺ إلى ربه سبحانه وتعالى، وجواز ذلك وحُسنه من الأمور المعلومة لكل ذي دين، المعروفة من فعل الأنبياء والمرسلين، وسير السلف الصالحين، والعلماء والعوام من المسلمين، ولم ينكر أحد ذلك من أهل الأديان، ولا سمع به في زمن من الأزمان، حتى جاء ابن تيمية، فتكلم في ذلك بكلام يُلبس فيه على الضعفاء الأغمار^(٤)، وابتدع ما لم يُسبق إليه في سائر الأعصار" (السبكي، ٢٠٠٨م: ٣٥٧).

إذ تباينت المواقف حوله التوسل بين إنكار مفرط وغلو بعيد عن الاعتدال، الأمر الذي أدى إلى انحرافات في الفهم أخرجت المسألة عن إطارها الصحيح. ومن هنا تبرز الحاجة إلى تقويم هذه الاتجاهات بما ينسجم مع مقاصد التوحيد وأصول الشريعة، وقد أشار الشيخ ناصر مكارم

(٤) الغمر بضم العين: "الذي لم يُجربِ الأمورَ، وهُمُ الأغمارُ، ومَصْدَرُهُ العَمَارَةُ والغُمُورَةُ". (الصاحب بن عباد، ١٩٩٤م: مادة (غمر)، ٨١/٥).

الشيرازي إلى أن الانحراف في هذه المسألة وقع من طرفين متقابلين ابتعدا عن منهج الوسطية والاعتدال، وهما:

١. المجموعة الأولى: (التفريطية): وهم المنكرون للتوسل بأولياء الله، إذ اعتقدوا أنه ينافي كمال التوحيد، مع أن التوسل المشروع الوارد في القرآن والروايات هو تأكيد للتوحيد، لأنه في جوهره طلب من الله تعالى ببركة قرب أوليائه.

٢. المجموعة الثانية (الإفراطية): وهم الغلاة الذين جعلوا من التوسل مدخلاً للغلو بعبارات لا تتسجم مع التوحيد الأفعالي ولا مع التوحيد في العبادة، في حين أن «لا مؤثر في الوجود إلا الله تعالى». (الشيرازي، ١٤٢٨هـ: ١٩٥-١٩٦)

وبذلك كما نُرشد المنكرين للتوسل الصحيح، يجب كذلك مواجهة الغلاة وإعادتهم إلى الاعتدال، إذ إن الإفراط يُولد التفريط، وهذه سنة جارية في القضايا العقدية والاجتماعية والسياسية، إذ يلتقي كلا الطرفين على الخطأ. (الشيرازي، ١٤٢٨هـ: ١٩٦)

وقال الشيخ ناصر مكارم الشيرازي في موضع آخر: "فبناءً على ذلك فإن فريقين من الناس على خطأ في مسألة التوسل بالنبي (ص) والأئمة الطاهرين (عليهم السلام): الفريق الأول: من يزعم أن النبي أو الإمام له قدرة وقوة مستقلة بالذات في قبال الله تعالى، فهذا الاعتقاد شرك بالله تعالى. والفريق الآخر: من ينفي القدرة - بالغير - عن النبي (ص) والأئمة الطاهرين (عليهم السلام)، فهذا الاعتقاد انحراف عن مفاد آيات القرآن الصريحة. إذن: الحق هو أن النبي والأئمة يشفعون للمتوسل بهم بإذن الله تعالى وأمره، ويطلبون حل معضلته من الله تعالى" (الشيرازي، ١٤٢٣هـ: ٣٢٤/٥).

كما أكد الشيخ ناصر مكارم الشيرازي على ما ذهب إليه السيد محمد المالكي^(٥) في توضيح مفهوم التوسل ومشروعيته (الشيرازي، ١٤٢٨هـ: ١٨٦)، إذ أوضح المالكي أن كثيراً من الناس يخطئون في إدراك حقيقته، ويبين جملة من الحقائق في هذا المجال:

(٥) هو السيد محمد الحسن بن علوي بن عباس بن عبد العزيز المالكي، من النسب الحسن بن علي بن أبي طالب، ولد بمكة المكرمة عام ١٣٦٥هـ، وقيل: ١٣٦٧هـ، وتوفي فيها عام ١٤٢٥هـ. له مؤلفات عديدة، تجاوز عددها الثمانين،

١. التوسل هو أحد أساليب الدعاء ووسيلة من وسائل التوجه إلى الله تعالى، فالمقصود الأول والأخير هو الله سبحانه، والمتوسل به مجرد واسطة للتقرب إليه، ومن اعتقد غير ذلك فقد وقع في الشرك.

٢. المتوسل إنما يتوسل بالواسطة بدافع محبته لها وإيمانه بأن الله تعالى يحبها، ولو ظهر خلاف ذلك لكان أبعد الناس عنها، وأشد الناس كراهة لها.

٣. إذا اعتقد المتوسل أن الوسطة تنفع أو تضر بنفسها استقلالاً كالله تعالى أو دونه، فقد وقع في الشرك.

٤. التوسل ليس شرطاً لازماً ولا ضرورة حتمية، إذ الأصل هو دعاء الله تعالى مباشرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال أيضاً: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]. (المالكي، ٢٠١٩م: ١٧٨) وقال السبحاني: إن التوسل إنما يُشرع عند مراعاة أمرين أساسيين:

١. ثبوت كون ذلك الشيء (وسيلة) لتحقيق المقاصد الدنيوية أو الأخروية، بدليل من القرآن أو السنة.

٢. عدم الاعتقاد بأصالة الوسائل أو استقلالها بالتأثير، بل إن تأثيرها موقوف على إذن الله تعالى ومشينته. (السبحاني، ١٩٩٨م: ٢٨٠-٢٨١)

وقد وجهنا القرآن الكريم إلى الاستعانة بالوسائل المعنوية، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٨٦]، كما ينبغي التنبيه

منها: "أبواب الفرج"، و"أصول التربية الإسلامية"، و"زبدة الإتيان في علوم القرآن"، و"العقد الفريد المختصر من الإثبات والإسناد"، وغيرها. ينظر: (المرعشلي، ٢٠٠٢م: ٢٠٧/٣)؛ (المالكي، ١٤١٢هـ: ٣)؛ (جميل، ١٩٩٠م: ٩٨/٢). وللاطلاع أكثر يمكن مراجعة: "السيد محمد بن علوي المالكي المكي الحسني (ت: ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م) "رحمه الله" وجهوده الكلامية، أسرار ثامر هادي العبيدي، رسالة ماجستير في العقيدة والفكر الإسلامي، جامعة بغداد/كلية العلوم الإسلامية، ٢٠١٨م".

إلى أن الوسيلة لا تعني نفس القرب، وإنما تعني ما يكون سبباً في التقرب إلى الله عز وجل. (السبحاني، ١٩٩٨م: ٢٨١)

ومما سبق بيانه نستنتج: أن التوسل هو أحد أساليب الدعاء المشروعة، مقصوده الله تعالى وحده، والمتوسل به مجرد وسيلة، لا يُعتقد فيه استقلال بالنعف أو الضر لئلا يقع في الشرك، وليس شرطاً لازماً إذ الأصل دعاء الله تعالى مباشرة، ولا يُشرع إلا بدليل شرعي مع الإيمان بأن تأثيره منوط بإذن الله تعالى ومشيئته.

المبحث الثاني: أدلة التوسل في القرآن الكريم والروايات الإسلامية.

المطلب الأول: التوسل في القرآن الكريم:

بين القرآن الكريم التوسل في آيات عدة، وبينها الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، إذ قال: "هناك آيات قرآنية تدل بوضوح على أن التوسل بمقام إنسان صالح عند الله تعالى، وطلب شيء من الله تعالى عن طريق التوسل بجاه هذا الإنسان عند الله تعالى، لا يعد أمراً محظوراً ولا ينافي التوحيد" (الشيرازي، ١٤٢٣هـ: ٣/٦٩٦)، وقد استدلت لذلك بآيات عدة، منها ما يأتي (الشيرازي، ١٤٢٣هـ: ٣/٦٩٦-٦٩٧):

١. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].

قال الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: توجه الآية الكريمة خطابها إلى المؤمنين، متضمنة ثلاثة أوامر أساسية هي: التقوى التي تمثل الحيطة والالتزام بأوامر الله تعالى، وابتغاء الوسيلة التي تقرب العبد إلى ربه، والجهاد في سبيله بما يحفظ الدين ويعلي كلمته، واجتماع هذه التكاليف يشكل المنهج العملي للفلاح، وهو ما ذكر في ذيل الآية: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الشيرازي، ١٤٢٣هـ، ٣/٦٩٤، ١٨٣).

وقال الطوسي: "خاطب الله تعالى في هذه الآية المؤمنين، وأمرهم أن يتقوه، ومعناه أن يتقوا معاصيه ويجتنبوها، وابتغوا إليه، ومعناه يطلبون إليه الوسيلة، وهي القرية...، وهي على وزن (فعيلة) من قولهم: توسلت إليك، أي تقربت" (الطوسي، ١٤٠٩هـ: ٣/٥٠٩-٥١٠).

وقال النسفي: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾، هي كل ما يتوسل به أى يتقرب من قرابة أو صنعية أو غير ذلك، فاستعيرت لما يتوسل به إلى الله تعالى، من فعل الطاعات وترك السيئات" (النسفي، ١٩٩٨م: ٢٨١/١).

٢. قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

قال الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: "إن هذه الآية تجيب ضمناً على كل الذين يعتبرون التوسل برسول الله أو بالإمام نوعاً من الشرك، لأن الآية تصرح بأن التوسل بالنبي والاستشفاع به إلى الله تعالى، وطلب الاستغفار منه لمغفرة المعاصي، مؤثر وموجب لقبول التوبة وشمول الرحمة الإلهية، فلو كانت وساطة النبي ﷺ ودعاؤه للعصاة المتوسلين به، والاستشفاع به وطلب الاستغفار منه شركاً، فكيف يمكن أن يأمر القرآن العصاة والمذنبين بمثل هذا الأمر؟" (الشيرازي، ١٤٢٣هـ: ٣٠٦/٣).

وقال الطوسي: "واستغفار النبي ﷺ هو دعاؤه لهم باللطف الذي تقع معه المغفرة" إن الله غفور رحيم "أي سائر لذنوبهم منعم عليهم" (الطوسي، ١٤٠٩هـ: ٤٦٦/٧).

وقال ابن كثير: "الحكاية المشهورة عن العتبي^(٦)، قال: كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ، فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾، وقد جئتكم مستغفراً لذنبي، مستشفعاً بك إلى ربي، ثم أنشأ يقول:

(يا خير من دُفنت بالقاع أعظمه *** فطاب من طيبهنّ القاع والأكم)

(نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه *** فيه العفاف وفيه الجود والكرم)

(٦) هو "محمد بن عبيد الله بن عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان صخر بن حرب، كان من أفصح الناس، صاحب أخبار ورواية للأدب، حدّث عن أبيه وسفيان بن عيينة. ذكره النقي السبكي في كتاب "شفاء السقام في زيارة خير الأنام" وهذه الحكاية مروية عنه بالإسناد، وهي مروية عن ثلاثة غير العتبي" (النووي، ١٩٩٠م: هامش ٣٣٥).

ثم انصرف الأعرابي، فغلبتني عيني، فرأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم في النوم، فقال: (يا عتبي، ألق الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له) (ابن كثير، ١٤٠١هـ، وابن قدامة، ٩٨٣م: ٥٢١/١، بتصرف ٤٩٤/٣).

٣. قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩٧].

قال الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: طلب إخوة يوسف من أبيهم أن يستغفر لهم ربهم، فاستجاب يعقوب لهذا الطلب. (الشيرازي، ١٤٢٣هـ: ٦٩٦/٣).

وقال في موضع آخر: "نرى أن إخوة يوسف بعد ما ارتكبوا تلكم الجرائم في أخيهم، شعروا بأن ذنبهم عظيم إلى درجة أنهم لا يستطيعون طلب العفو بشكل مباشر من أخيهم يوسف (عليه السلام) أو من الله تعالى، وبذلك توسلوا بأبيهم وقالوا: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ (الشيرازي، ١٤٢٦هـ: ٥١٢/٩).

وقال ابن عطية الأندلسي: "روي أن يوسف (عليه السلام) لما غفر لإخوته، وتحققوا أيضاً أن يعقوب (عليه السلام) يغفر لهم، قال بعضهم لبعض: ما يغني عنا هذا إن لم يغفر الله لنا، فطلبوا حينئذٍ من يعقوب أن يطلب لهم المغفرة من الله تعالى، واعترفوا بالخطأ" (ابن عطية، ١٩٩٣م: ٢٨٠/٣).

يتضح من خلال استقراء الآيات القرآنية، أن التوسل ثابت في كتاب الله تعالى بأشكال متعددة، منها: الأمر بابتغاء الوسيلة إلى الله تعالى كما في آية المائدة، والاستغفار عبر النبي ﷺ كما في آية النساء، وطلب المغفرة بواسطة نبي من الأنبياء كما فعل إخوة يوسف مع أبيهم، بما يؤكد أن التوسل ليس مخالفاً للتوحيد، بل هو أسلوب مشروع للتقرب إلى الله تعالى، جرى عليه الأنبياء والأمم السابقة، مما يدل على مشروعيته في الإسلام وارتباطه الوثيق بمقاصد الشرع في الهداية والفلاح.

قال الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: يتضح من خلال الأدلة القرآنية أن الآيات المرتبطة بالتوسل جاءت بصيغة العموم والإطلاق، مما يجعل التوسل بجميع أنواعه جائزاً من غير تعارض مع مبدأ التوحيد في العبادة أو التوحيد الأفعالي، فالوسيلة التي أمر القرآن بابتغائها

تشمل كل ما يقرب إلى الله تعالى، سواء كان عملاً صالحاً أو الدعاء أو التوسل بمقام النبي الأكرم ﷺ وشخصه وصفاته، باعتباره عبداً مطيعاً لله تعالى، كما أن التوسل لا يعني عبادة غير الله تعالى، بل يبقى المعبود هو الله تعالى وحده، والمنشأ الحقيقي لكل خير وشر منه سبحانه، وبذلك فإن الأصل في الآيات هو العموم الفعلي الذي يُعمل به ما لم يَقم دليل على التخصيص أو المنع، ومن ثم فإن التوسل لا يعدو أن يكون طريقاً مشروعاً للتقرب إلى الله تعالى، ولا موجب لردّه أو تأويله بما يتعارض مع النصوص القرآنية الصريحة. (الشيرازي، ١٤٢٨هـ: ١٩١-١٩٢) **المطلب الثاني: التوسل في الروايات الإسلامية:**

ذكر الشيخ ناصر مكارم الشيرازي روايات إسلامية (الشيرازي، ١٤٢٨هـ، ١٤٢٣هـ: ١٨٧-١٩٠، ٦٩٧/٣) عدة، دلت على مشروعية التوسل، منها ما يأتي:

١. توسل آدم (عليه السلام) بالنبي الأكرم ﷺ، قبل ولادته، كما ورد عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: "لَمَّا اقْتَرَفَ آدَمُ الْخَطِيئَةَ قَالَ: يَا رَبِّ، أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ لَمَّا عَفَرْتَ لِي، فَقَالَ اللَّهُ: يَا آدَمُ، وَكَيْفَ عَرَفْتَ مُحَمَّدًا وَلَمْ أُخْلُقْهُ؟ قَالَ: يَا رَبِّ، لِأَنَّكَ لَمَّا خَلَقْتَنِي بِيَدِكَ وَنَفَخْتَ فِيَّ مِنْ رُوحِكَ، رَفَعْتَ رَأْسِي فَرَأَيْتُ عَلَى قِوَامِ الْعَرْشِ مَكْتُوبًا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، فَعَلِمْتُ أَنَّكَ لَمْ تُضِفْ إِلَى اسْمِكَ إِلَّا أَحَبَّ الْخَلْقِ إِلَيْكَ، فَقَالَ اللَّهُ: صَدَقْتَ يَا آدَمُ، إِنَّهُ لِأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَيَّ، وَإِذْ سَأَلْتَنِي بِحَقِّهِ فَقَدْ عَفَرْتُ لَكَ، وَلَوْلَا مُحَمَّدٌ مَا خَلَقْتُكَ" رواه الحاكم النيسابوري وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد" (النيسابوري، ١٩٩٠م: ٦٧٢/٢ برقم ٤٢٢٧)، ورواه الطبراني (الطبراني، ١٩٨٥م: ١٨٢/٢ برقم ٩٩٢)، واللفظ للنيسابوري.

قال الهيثمي: "رواه الطبراني في الأوسط والصغير، وفيه من لم أعرفهم" (الهيثمي، ١٤٠٧هـ: ٢٥٣/٨).

وجه الدلالة في الحديث: ذكر الشامي: "لو لم يتب عليه لبقى هو وذريته في دار السخط أبد الأبد، فما ظنك برجل واحد شمل العالمين كلهم بركته، حتى صولح به المتمردون، ورزق به المحرمون، وجبر به المنكسرون، وأنقذ به المعذبون، ومن العجب أن ننتظر شفاعته في القيامة

وقد سبقت شفاعته فينا وفي أبنينا من أول دنيانا، فهو مطهر الباطن والظاهر مبارك الأول والآخر" (الصالح، ١٩٩٣م: ٨٥/١).

٢. ورد في رواية نقلها ابن حجر في فتح الباري (العسقلاني، ١٣٧٩هـ: ٤٩٤/٢)، والحلي في السيرة الحلبية (الحلي، ١٤٠٠هـ: ١٩٠/١): أنه حينما أصاب مكة قحط شديد وجفاف، جاءت قريش إلى أبي طالب وقالوا له: لقد أقحط الوادي واشتد الفقر بالناس، فاطلب لنا السقيا. فخرج أبو طالب وهو يصطحب معه غلاماً مشرق الوجه كأنه شمس في ليلة مظلمة، فأخذ بيده وألصق ظهره بالكعبة المشرفة وجعل يتوسل به. وفي تلك اللحظة لم يكن في السماء أثر للسحاب، فإذا بالسحاب يتجمع من كل جهة حتى أثقل بالمطر، فانحدرت السيول وامتأ الوادي واخضرت البوادي، وقد عبّر أبو طالب عن هذا الموقف بشعرٍ قال فيه أكثر من ثمانين بيتاً، ومن أشهرها قوله:

"وأبيضُ يُستسقى الغمامُ بوجهه ... ثمالُ اليتامى عصمةٌ للأرامل".

وبذلك يتضح: أن أبا طالب -وهو شيخ قريش وذو مكانة رفيعة بينهم- قد لجأ إلى التوسل بالنبي الأكرم ﷺ في صغره، وهو ما يعكس إدراكه لكرامة النبي ومقامه عند الله تعالى حتى قبل بعثته، كما أن تحقق الأثر مباشرةً بنزول الغيث بعد الالتجاء إلى الله تعالى بجاه النبي ﷺ، يشكل دليلاً عملياً على مشروعية التوسل، وبياناً لكونه سبباً مشروعاً في نيل الرحمة الإلهية.

٣. إن رجلاً ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني، قال ﷺ: "إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ، وَإِنْ شِئْتَ صَبَرْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ، قَالَ: فَادْعُهُ، قَالَ: فَأَمْرُهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ فَيُحْسِنَ وُضُوءَهُ، وَيَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، إِنِّي تَوَجَّهْتُ بِهِ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ لِتَقْضَى لِي، اللَّهُمَّ فَشَفِّعْهُ فِيَّ". رواه أحمد (الشيخاني، (ب.ت): ١٣٨/٤، برقم ١٧٢٨٠) [حديث عثمان بن حنيف (رضي الله عنه)]، والترمذي (الترمذي، (ب.ت): ٥٦٩/٥، برقم ٣٥٧٨) [كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب في دعاء النبي ﷺ وتعوذه دبر كل صلاة]، واللفظ له وقال: "هذا حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه الا من هذا الوجه من

حديث ابي جعفر وهو الخطمي"، وابن ماجه (ابن ماجه، (ب.ت): ٤٤١/١، برقم ١٣٨٤) [باب ما جاء في صلاة الحاجة] ، وقال: "هذا حديث صحيح".

وجه الدلالة في الحديث: أن الرجل الضرير قصد النبي الأكرم ﷺ في حياته متوسلاً به إلى الله تعالى، فاستجاب الله دعاءه على يدي النبي ﷺ، فشفاه وأعاد إليه بصره.

قال الشوكاني: "في الحديث دليل على جواز التوسل برسول الله ﷺ إلى الله عز وجل، مع اعتقاد أن الفاعل هو الله سبحانه وتعالى، وأنه المعطي المانع، ما شاء كان وما يشأ لم يكن" (مجد بن علي، ١٩٨٤م: ٢١٢).

٤. ما ورد عن أوس بن عبد الله قال: "فُحِطَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ فَحَطًا شَدِيدًا، فَشَكُّوا إِلَى عَائِشَةَ، فَقَالَتْ: انظُرُوا قَبْرَ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) فَاجْعَلُوا مِنْهُ كَوِيًّا^(٧) إِلَى السَّمَاءِ، حَتَّى لَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّمَاءِ سَفْتٌ، قَالَ: فَفَعَلُوا، فَمُطِرْنَا مَطَرًا حَتَّى نَبَتَ الْعُشْبُ، وَسَمِنَتِ الْإِبِلُ حَتَّى تَفْتَقُ مِنَ الشَّحْمِ، فَسُمِّيَ عَامَ الْفَتْحِ"، رواه الدرامي (الدارمي، ٢٠٠٠م: ٢٢٧/١، برقم ٩٣)، وعلق محقق الكتاب قائلاً: "رجاله ثقات، وهو موقوف على عائشة".

وجه الدلالة في الحديث: قال الزهراني: "أم المؤمنين لم تأمر بمخاطبة الرسول ﷺ بشيء، بل أمرتهم (رضي الله عنها) بفعل وهو أن يفتحوا في السقف فتحات، بحيث لا يحجب قبر الرسول ﷺ عن السماء، وهذا اجتهاد منها في الاستشفاع برسول الله ﷺ بعد موته، بغير دعائه، ولا مخاطبته بطلب" (الزهراني، ٢٠٢١م: ٢١١/١).

٥. ورد عن أنس: "أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ (رضي الله عنه) كَانَ إِذَا فَحَطُوا اسْتَسْقَى بِالْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمَطَّلِبِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا. قَالَ: فَيُسْقَوْنَ" رواه البخاري (البخاري، ١٩٨٧م: ٣٤٢/١، برقم ٩٦٤) [كتاب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا].

(٧) الكوى: "جمع كوة، وهي منقذ في جدار وغيره؛ أي: اجعلوا من قبر النبي ﷺ منافذ إلى السماء" (الزيداني، ٢٠١٢م: ٢٧١/٦).

مما تقدم يتضح لنا: أن الروايات الواردة في المصادر الإسلامية على أن التوسل بالنبي الأكرم ﷺ كان معروفاً ومشروعاً في حياة الأنبياء والصحابة والتابعين، فقد توسل آدم (عليه السلام) بالنبي ﷺ فتاب الله تعالى عليه، ولجأ أبو طالب به ﷺ في صغره فنزل الغيث، وتوسل الرجل الضير بدعائه ﷺ فاستجاب الله تعالى له وردّ بصره، كما اجتهدت عائشة (رضي الله عنها) بفتح كوة عند قبره الشريف لينزل المطر، بينما استسقى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بالعباس عم النبي ﷺ بعد وفاته. وهذه النصوص تكشف عن تعدد صور التوسل: تارةً بذات النبي ﷺ، وأخرى بدعائه وشفاعته، أو بجاهه ومقامه، بل وبذوي قرياه، وكلها شواهد على أن التوسل يمثل وسيلة مشروعاً للتقرب إلى الله تعالى وطلب رحمته.

فقد أوضح الشيخ ناصر مكارم الشيرازي أن الروايات الواردة في التوسل - والتي عرضنا بعضها - جاءت بأشكال متعددة، وجميعها مشروع، ومنها: التوسل بشخص النبي ﷺ كما ورد في قصة الأعمى، والتوسل بدعائه ﷺ، والتوسل بشفاعته ﷺ، إلى جانب صور أخرى ذكرتها الروايات، ومع هذا التعدد في الأساليب والأنماط المختلفة للتوسل، لا يبقى مجال للاعتراض أو الجدل، إذ إن الخلاف في ذلك لا يعدو أن يكون لفظياً. (الشيرازي، ١٤٢٨هـ: ١٩٣)

أما الألوسي فقد أورد في تفسيره عدداً كبيراً من الأحاديث والروايات المشابهة لما سبق ذكره، وبعد أن أطال في مناقشتها وتشدد في نقدها، انتهى في النهاية إلى التسليم بمضمونها والإقرار بها، إذ قال: " وبعد هذا كله، أنا لا أرى بأساً في التوسل إلى الله تعالى بجاه النبي ﷺ عند الله تعالى، حياً وميتاً، ويراد من الجاه معنى يرجع إلى صفة من صفاته تعالى، مثل أن يراد به المحبة التامة المستدعية عدم رده وقبول شفاعته، فيكون معنى قول القائل: إلهي، أتوسل بجاه نبيك ﷺ أن تقضي لي حاجتي، إلهي اجعل محبتك له وسيلة في قضاء حاجتي، ولا فرق بين هذا وقولك: إلهي، أتوسل برحمتك أن تفعل كذا، إذ معناه أيضاً: إلهي اجعل رحمتك وسيلة في فعل كذا، بل لا أرى بأساً أيضاً بالإقسام على الله تعالى بجاهه ﷺ بهذا المعنى، والكلام في الحرمة كالكلام في الجاه، ولا يجري ذلك في التوسل والإقسام بالذات البحث، نعم، لم يُعهد التوسل بالجاه والحرمة عن أحد من الصحابة (رضي الله تعالى عنهم)، ولعل ذلك كان تحاشياً

منهم عما يُخشى أن يعلق منه في أذهان الناس إذ ذاك - وهم قريبو عهد بالتوسل بالأصنام- شيء، ثم اقتدى بهم من بعدهم من الأئمة الطاهرين" (الألوسي، ١٩٩٤م: ٣/٢٩٧).
قال السبكي: "إن التوسل بالنبي ﷺ جائز في كل حال، قبل خلقه وبعد خلقه، في مدة حياته في الدنيا، وبعد موته في مدة البرزخ، وبعد البعث في عرصات القيامة والجنة" (السبكي، ٢٠٠٨م: ٣٥٨).

وبناءً على ما سبق، يظهر أن التوسل بالنبي ﷺ مسألة حظيت باهتمام واسع في الروايات الإسلامية، إذ تنوعت فيها المواقف بين التوسيع والتقييد، غير أن القدر المشترك بين العلماء هو الإقرار بأصل المشروعية عند استيفاء ضوابطها الشرعية، فالشيخ ناصر مكارم الشيرازي ركز على تنوع صورته وتكاملها، والألوسي . بعد طول مناقشة . انتهى إلى قبولها على أساس تفسير (الجاه) بما لا يتعارض مع صفات الله تعالى، بينما السبكي ذهب إلى تقرير جوازها في جميع المراحل والأحوال، ومن ثم فإن الخلاف القائم لا يعدو أن يكون في الحدود الاصطلاحية والممارسات التطبيقية، أكثر منه في أصل المسألة. وهذا يفتح المجال لقراءة أكثر اتزاناً، تقوم على الجمع بين الروايات الواردة، ومقاصد الشريعة في تعظيم مقام النبي ﷺ من جهة، وصيانة عقيدة التوحيد من جهة أخرى.

الخاتمة:

بعد إتمام هذا البحث بفضل الله تعالى وتوفيقه، الذي يسر لي سبل إنجازه وأعانني على إتمامه، أخلص إلى أبرز النتائج التي توصل إليها، وذلك على النحو الآتي:

١. يتضح من خلال دراسة موقف الشيخ ناصر مكارم الشيرازي أن مسألة التوسل تتجاوز كونها خلافاً فقهيّاً جزئياً لتشكل قضية عقديّة أثارت جدلاً واسعاً في الفكر الإسلامي، وقد خلص البحث إلى أن التوسل في حقيقته لا يتعارض مع مبدأ التوحيد، إذ إن الغاية النهائية هي التوجه إلى الله تعالى، في حين أن المتوسل به لا يعدو أن يكون وسيلة شرعية للتقرب إليه.
٢. أثبت الشيخ ناصر مكارم الشيرازي استناداً إلى النصوص القرآنية والروايات الإسلامية مشروعية التوسل بأشكاله المتعددة، سواء بالأعمال الصالحة أو بمقام النبي ﷺ ودعائه

وشفاعته، وكذلك بأهل بيته وأوليائه الصالحين، كما شدد على أن الشرك لا يتحقق إلا بالاعتقاد بوجود قوة مستقلة لغير الله تعالى، أما اتخاذ الوسيلة إليه فلا يتعارض مع التوحيد.

٣. إن جذور الخلاف العقدي برزت منذ القرن السابع الهجري مع طرح ابن تيمية لرأي مغاير للمألوف في تراث الأمة الإسلامية، مما أدى إلى تضخيم المسألة وتوسيع دائرة النزاع، ومن هنا أكد الشيخ ناصر مكارم الشيرازي ضرورة التزام منهج الاعتدال عبر مواجهة طرفي الانحراف: الغلو في التوسل من جهة، وإنكاره المطلق من جهة أخرى.

٤. التوسل في اللغة والاصطلاح يدور حول معنى القرب واتخاذ الوسيلة المشروعة إلى الله تعالى.

٥. النصوص القرآنية والحديثية تثبت مشروعيته وتنوع أساليبه.

٦. يتسم موقف الشيخ ناصر مكارم الشيرازي بالوسطية والموضوعية.

٧. الخلاف العقدي نشأ نتيجة الانحراف بين طرفي الغلو والإنكار، والحل بالعودة إلى المفهوم القرآني والنبوي.

وبناءً على النتائج المتحصل عليها، تطرح الدراسة التوصيات الآتية:

أ. جعل القرآن الكريم والروايات الإسلامية المرجع الأساس في فهم مشروعية التوسل وضوابطه.
ب. تفعيل الحوار العلمي بين المذاهب الإسلامية بعيداً عن خطاب التكفير والتبديع، مع العمل على توظيف هذه الرؤية في تعزيز الوحدة الإسلامية وتقوية قدرتها على مواجهة التحديات المعاصرة.

ت. إبراز الرؤية الوسطية القائمة على التوازن، ومواجهة الانحرافين المتمثلين في الغلو والإنكار على حد سواء.

هذا جهدي، أسأل الله تعالى النفع به والقبول، واستغفره من الزلل والنسيان، والحمد لله أولاً وآخراً.

المصادر والمراجع

بعد القرآن الكريم

- ابن عطية، عبد الحق بن غالب (١٩٩٣م)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية.
- ابن قدامة، محمد بن أحمد، (١٩٨٣م)، الشرح الكبير على متن المقنع (مطبوع مع المغني)، أشرف على طباعته: محمد رشيد رضا صاحب المنار، (ب.ط)، بيروت: دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر، (١٤٠١هـ)، تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (ب.ط)، بيروت: دار الفكر.
- ابن ماجه، محمد بن يزيد، (ب.ت)، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (ب.ط)، بيروت: دار الفكر.
- ابن منظور، جمال الدين محمد، (١٩٨٩م)، لسان العرب، ط١، بيروت: دار صادر.
- الأزهرى، محمد بن أحمد، (ب.ت)، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط١، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- الألوسي، شهاب الدين السيد محمود، (١٩٩٤م)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية.
- البخاري، محمد بن إسماعيل، (١٩٨٧م)، الجامع الصحيح المختصر (صحيح البخاري) تحقيق: مصطفى ديب البغا، ط٣، بيروت: دار ابن كثير.
- الترمذي، محمد بن عيسى، (ب.ت)، سنن الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، (ب.ط)، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- جميل، زهير محمد، (١٩٩٠م)، رجال من مكة المكرمة، ط١، المملكة العربية السعودية: دار الفنون للطباعة والنشر.
- الجوهري، إسماعيل بن حماد، (١٩٩٠م)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ط٤، بيروت: دار العلم للملايين.

- الحلبي، علي بن برهان الدين، (١٤٠٠هـ)، السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون (ب.ط.)، بيروت: دار المعرفة.
- الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن، (٢٠٠٠م)، مسند الدارمي (سنن الدارمي)، تحقيق: حسين سليم أسد الدارني، ط١، المملكة العربية السعودية: دار المغني للنشر والتوزيع.
- الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، (١٤٠٤هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني، ط٢، بيروت: دار المعرفة.
- الرسائل الجامعية:
- الزبيدي، محمد مرتضى، (١٩٨٤م)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، ط١، دمشق: دار ابن كثير.
- الزهراني، مرزوق بن هياس، (٢٠٢١م)، شرح مسند الدارمي، ط١، (بدون دار نشر).
- الزيداني، الحسين بن محمود، (٢٠١٢م)، المفاتيح في شرح المصابيح، تحقيق: لجنة مختصة من المحققين بإشراف: نور الدين طالب، ط١، الكويت: إدارة الثقافة الإسلامية.
- السبحاني، جعفر بن محمد، (١٤٢١هـ)، في ظلال التوحيد، ط١، طهران: دار مشعر.
- السبحاني، جعفر بن محمد، (١٩٩٨م)، العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)، نقل إلى العربية: جعفر الهادي، ط١، قم: مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام).
- السبكي، تقي الدين علي بن عبد الكافي، (٢٠٠٨م)، شفاء السقام في زيارة خير الأنام ﷺ، تحقيق: حسين محمد شكري، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية.
- السيد محمد بن علوي المالكي المكي الحسني (ت: ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م) (رحمه الله) وجهوده الكلامية، أسرار ثامر هادي العبيدي، رسالة ماجستير في العقيدة والفكر الإسلامي، جامعة بغداد/كلية العلوم الإسلامية، ٢٠١٨م.
- الشيباني، أحمد بن حنبل، (ب.ت)، مسند أحمد بن حنبل، (ب.ط.)، مصر: مؤسسة قرطبة.
- الشيرازي، ناصر مكارم، (١٤٢٣هـ)، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ط٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

- الشيرازي، ناصر مكارم، (١٤٢٦هـ)، نفحات الولاية، ط٢، قم، مدرسة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام).
- الشيرازي، ناصر مكارم، (١٤٢٨هـ)، الشيعة شبهات وردود، ط١، قم: مدرسة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام).
- صاحب بن عباد، (١٩٩٤م)، المحيط في اللغة، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، ط١، بيروت: عالم الكتب.
- الصالحي، محمد بن يوسف، (١٩٩٣م)، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية.
- الطبراني، سليمان بن أحمد، (١٩٨٥م)، الروض الداني (المعجم الصغير)، تحقيق: محمد شكور محمود، ط١، بيروت: المكتب الإسلامي.
- الطوسي، محمد بن الحسن، (١٤٠٩هـ)، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق: أحمد حبيب قصير العامل، ط١، قم: مكتب الإعلام الإسلامي.
- عبد الحميد، صائب، (١٤٢١هـ)، الزيارة والتوسل، ط١، قم: مركز الرسالة.
- العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، (١٣٧٩هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، (ب.ط)، بيروت: دار المعرفة.
- الغصن، عبد الله بن صالح، (١٤٢٤هـ)، دعاوى المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية - عرض ونقد، ط١، المملكة العربية السعودية: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع.
- الفيومي، أحمد بن محمد، (ب.ت)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، (ب.ط)، بيروت: المكتبة العلمية.
- القدسي، أحمد، (١٤٢٤هـ)، السيرة المباركة لسماحة آية الله العظمى مكارم الشيرازي، ط١، قم: مدرسة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام).
- المالكي، محمد بن علوي، (١٤١٢هـ)، الطالع السعيد المنتخب من المسلسلات والإسناد، (ب.ط)، المدينة المنورة: مطابع الصفا.
- المالكي، محمد بن علوي، (٢٠٠٧م)، أبواب الفرج، ط٢، بيروت: دار الكتب العلمية.

- المالكي، محمد بن علوي، (٢٠١٩م)، مفاهيم يجب أن تصحح، تحقيق: أحمد بن محمد بن علوي المالكي الحسيني، ط١، بيروت: دار الحاوي.
- المثل الاخلاقي في تفسير نفاتح القرآن، للشيخ ناصر مكارم الشيرازي(دراسة موضوعية)، فاطمة حسين كاظم، رسالة ماجستير في التربية الإسلامية، الجامعة المستنصرية/ كلية التربية الأساسية، ٢٠١٢م.
- محمد بن علي، (١٩٨٤م)، تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين، الشوكاني، ط١، بيروت: دار القلم.
- المرعشلي، يوسف عبد الرحمن، (٢٠٠٢م)، معجم المعاجم والمشیخات، (ب.ط)، المملكة العربية السعودية، الرياض: مكتبة الرشد.
- المسائل العقائدية في سورة هود في تفسير الامثل واهميتها التربوية، هناء هاشم عباس، رسالة ماجستير في التربية الإسلامية، الجامعة المستنصرية/ كلية التربية الأساسية، ٢٠١٢م.
- النسفي، عبد الله بن أحمد، (١٩٩٨م)، مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي)، تحقيق: يوسف علي بديوي، ط١، بيروت: دار الكلم الطيب.
- النووي، محيي الدين يحيى بن شرف، (١٩٩٠م)، الأذكار النووية أو (حلية الأبرار وشعار الأخيار في تلخيص الدعوات والأذكار المستحبة في الليل والنهار)، تحقيق: محيي الدين مستو، ط١، دمشق: دار ابن كثير.
- النيسابوري، محمد بن عبدالله، (١٩٩٠م)، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية.
- الهيثمي، علي بن أبي بكر، (١٤٠٧هـ)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، (ب.ط)، القاهرة: دار الريان للتراث.